القبر تحت قوس النصر

مأساة عن الحرب العظمى فى ثلاثة فصول

للكاتب الفرنسى بول رينال

تحن فى منزل بإحدى القرى الفرنسية أثناء الحرب العظمى ، وقد جلس رجل فى الستين من عمره مع فتاة فى العشرين تدعى أود وشاب يرتدى الثياب العسكرية . وسرعان ما تفهم أن هذا الجندى هو ابن الهرم وخطيب الفتاة وأنه قدم من ساحة القتال ليرى أسرته وليقوم بعقد زواجه على خطيبته « اود » فقد حصل من أجل ذلك على إجازة أربعة أيام . ولا يكاد الحديث يدور بينهم حتى يعلم من أبيه الشيخ أن خطيبته قد تكلفت إظهار السرور بعد أن غادرها وذهب إلى ساحة القتال . وأنها فعلت ذلك لكى ترضى والده . ولكنها بعد ذلك أخذ القلق يساورها فبدأت تستفسر عن نشأة ابنه النائب وعن طفولته وشبابه . كان ذلك عزاءها فى غيبته . ويسأل الجندى عما إذا كانت قد وصلت رسالة باسمه إلى المنزل فينكران أولا ثم يحضران له الرسالة فإذا بها من مركز القيادة التابع له وفيها يأمره بأن يلغى إجازته ويعود إلى خط القتال . ولا يكاد يقرأ تلك البرقية حتى يضحك كما لو كان قد فوجىء مفاجأة سارة ، ثم يسأل خطيبته : لما ذا لم تخبريني عند حضورى ؟ فتجيبه : لقد كنت مبتهجا . فيذكرها بالواجب الملقى على عاتقه ، وكيف استشهد من فرقته ألفان ، وأنه لا بد أن يكون قد صدر أمر بهجوم جديد ويعتم على السفر فى أول قطار يقوم فى الفجر إذ أن قائده لم يسمح له بالسفر إلا على شرط الرجوع إذا جد فى الأمر شىء . وأن هذا القائد عند ما سمح له بذلك كان يقدر الخدمات التى أداها للوطن كجندى باسل .

ولا يكاد الابن يذكر مسألة الزواج التى قدم من أجلها حتى يبدى الأب اعتراضه وتقره « أود » على ذلك فزيارته قصيرة لا تسمح باستيفاء إجراءات الزواج .

ويخرج الجندى ويخلو الأب إلى « أود » فيذكر لها أنه واثق من أن ابنه لم يكن ليفكر فى الأخطار الكبيرة التى كان معرضاً لها بقدر ما كان يفكر فيها هى وفى تلك السعادة الجميلة التى قضت الظروف بحرمانه منها . فتسأله :

— وماذا أفعل لكي أعيش ؟ .

— سأعينك

أتحميني من الشجن والشقاء ؟

وتتطور المناقشة بين الإثنين ، فتذكر له العروس أن واجبه نحو ابنه قد انتهى وأن عاطفته نحوه إنما هى استمرار آلى لما كان يشعر به عندما كان ابنه لا يزال طفلا . أما هى فواجبها لم يكد يبدأ بعد . وعند ئذ يقول لها فى تأنيب خفيف :

— إنه ابنى ... فتجيبه بكل روحها : — إنه حياتى

ثم تنبهه إلى أنه ما دام قد حضر فمن غير اللائق أن يدور الحديث على شىء آخر غيره . وأن واجبها الأوحد هو أن تحبه وتذكره بالضحكة التى ضحكها عند ما قرأ البرقية الواردة باستدعائه ، وكيف أن هذه الضحكة الرهيبة قد أرعدتها وهى تشرح ذلك فتقول إنه يحمل طابع الحرب على شخصيته . ولقد أحست هى نفسها بكل هول الحرب عندما رأت كيف تقلصت عضلات وجهه المحبوب واستحال إلى عنف مخيف بمجرد ان نظر إلى البرقية .

ويلاحظ الأب الشيخ أنها لم تعد تتحدث إلا عن خطيبها ، وأن ابنه لا يتحدث إلا عنها . ويبدو له أنهما يشعران بأنه ليس بين الأحياء سواهما . وهو يحس لذلك بغضاضة على نفسه ، ويشعر بشىء من الغيرة إذ يسيطر الشباب هذه السيطرة على منزله . ويتحداه كما كان الظافرون يتحدون خصومهم الغلوبين بالسيوف فيما مضى ! وهو يخشى أن يكون عقبة بين ابنه وبينها . وتدهش « أود » لذلك وتصارحه بأنه جد مخطىء إذ يفكر فى ذلك كله ولكنه يقول رغم هذا : — ما أسعد هؤلاء الشبان. إن الحرب لم تغير كل شىء ! مهما حدث على الأرض فلا يوجد دائما إلا مصيبة واحدة . تلك هى الشيخوخة ! .

ثم يعود الإبن فى ثياب مدنية ويخرج الأب بعد أن يحاول

استصحاب الفتاة معه فيرجو منه ابنه أن يتركها له قليلا . ولا يكاد العروسان يختليان حتى تلتمس منه « أود » أن يصفح عنها ، فاذا سألها عن أى شيء تطلب الصفح ، أجابته عن أنها استطاعت العيش بعده . ثم تقول له : — إنك تمثل لناظرى كل الأمور . إننى لاأملك من حطام الدنيا إلا التفكير فيك . إنه غذاء كيانى ونار نفسى ، وهدف عينى ، وطابع صوتى ، ومجرى دمى . إنه كل شيء . إنه أنا ! .

ثم تذكره بمنشأ علاقتها به ، وكيف أنها طالما زهت وفاخرت بمعرفته وكيف تمنت أن تكون زوجته ، فاذا قال لها — ستكونين زوجتى يوماً ما .

أجابته بعد مجهود كبير : — كنت أود أن أكون زوجتك هذه الليلة .

فيذكر لها أنه ليس من حق أحد فى فرنسا أن يكون سعيداً فى هذا العام ، وأنه يود أن يدعو كل أصدقائه وزملائه فى الجيش إلى حضور حفلة زواجه ، ويشعر أنهم جميعا يشخصون اليه ، ويمدون إليه أيديهم الرقيقة سواء منهم الأحياء والأموات .

هى — الأموات ؟

هو — أصدقائى الذين استشهدوا والذين لو بقوا لكانوا هنا الآن . أين هم ؟ إننى أدعوهم . فلو ظلوا أحياء لكانوا الآن فى مراكزهم بساحة القتال . ولكنهم ماداموا قد ماتوا ففى مكنتهم الحضور ! إننى أنتظرهم . سيظهرون ، ليحضروا ، فلن أتمتع بكل بهجتى وسرورى بدونهم . إننى أناديهم .

ثم يبدأ فى مناداة أصدقائه من المحاربين الأموات إلى أن يصل إلى اسم صديق تعرفه خطيبته « أود » فيذكر لها كيف أن ذلك الصديق قد سقط مضرجا بدمه فى أحد الحصون وكيف أنه طلب إليه أن يرفع تمنياته الصادقة إليها وأن آخر كلماته له وهو يحتضر بين يديه : « كونا سعيدين » وتعجب « أود » بهذه العظمة التى تتجلى فى شخصية خطيبها . وتشعر أن نفسها عاجزة عن مجاراته فيها فتقول له : — إننى بجانبك أحس فى نشوة بعظمتك . وفى اضطراب بشقائى .. أنت توقن بأنك عظيم فيجيبها فى حزم وزهو : — أجل .

— هذا ظاهر ! إن هذه الروح التى لاتتجلى إلا فى جبهة القتال جعلتك تختلفان عنا وأسمى منا ، إننا لانستطيع أن نفهمك .

ثم تطلب إليه أن يرفعها إلى مرتبته وأن يسمو بها إلى درجة البطولة ، أن يرفعها إلى تلك السماء التى تخضبت بدم الشرف الحربى فيقول لها : — إن من يطلب ذلك بهذه اللهجة فلا شك إنه يحصل عليه .

— كلا .

— إنك أنت تلك البطلة التى ترغبين فيها .

ثم يطمئنها بعد ذلك ويخبرها أن الحرب قد وضعت أوزارها وأنها لن يندلع لهيبها بعد . ويتجاذبان أطراف حديث قصير . ثم يهبط الستار وهما يضحكان .

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى غرفة العرس التى قضى فيها العروسان ليلتهما . وهما يتحدثان عن تلك الليلة فنفهم أن « أود » قد وهبت خطيبها الجندى أعز ماتملك الفتاة العذراء ! وهى تذكر له أن هناك أشياء كثيرة لايزالان يجهلانها ومن بينها ماهو فى منتهى البساطة . وهى تعطى مثلا على ذلك أنها لم تره من قبل ، ذلك أنها لم تره قط وهو مغمض العينين . ولذا تطلب إليه أن يغمض عينيه ، فيفعل . ثم يخبرها أنه قد فهم ماتريده من وراء ذلك فإن عينيه المغمضتين تذكرانها بموته ! فتنكر ذلك فى ضعف . ولكنها تعود فتسأله ثانية عما إذا كانت الحرب قد انتهت حقا كما كان قد أخبرها . وتلح فى سؤالها إلحاحاً شديداً وعندئذ يصارحها بأن الحرب لم تنته وبأنه لا يزال أمام النصر النهائى مدة طويلة ؛ وهى تذعر من هذا النبأ وتلومه على أنه أطاعها وصارحها بالحقيقة ، وتخبره بأنه ما كان يجب أن يعبأ بإلحاح امرأة مفتونة ! وهو يلحظ مبلغ وقع النبأ عليها . وكيف أنها أحست بشبه خيبة فى حبها له . فسوف تضطر مرة أخرى إلى انتظار مدة طويلة وهى تتوسل إليه أن يبقى إلى جانبها ولكنه يجيبها أنه وحده دون باقى زملائه فى الثكنة قد استطاع الحصول على أجازة . وأن قائده قد اشترط عليه وجوب العودة بمجرد استدعائه . وها هو قد استدعى . ولا بد أن يكون الجيش فى خطر . فقد أخبره قائده أنه لن يستدعيه إلا إذا كان هناك خطر داهم . وهو بناء على معلوماته وبعد ورود تلك البرقية أصبح يوقن بأن المعركة الفاصلة ستدور رحاها يوم الأحد القادم ، ولذا يجب الرحيل عند الفجر . وهو ينتقل بعد ذلك فياتى كلامه كما لو كان ينطق بلسان كل جنود الجيش الفرنسى . فيذكر لها كيف يجب

أولئك الجنود نساء فرنسا . وكيف يموتون وهم يذكرونهن ويتمثلون ابتساماتهن الساحرة . وتتملكه فجأة نوبة يأس وأسى فيخبرها أن هـذه الحرب لا تعدو أن تكون كسابقاتها من الحروب ، لا تكاد تضع أوزارها حتى يكتفى الشعب بأن يلبس الحداد فى استهتار وعدم اكتراث مدة ما . وتاقى بعض الخطب بجانب التماثيل القائمة للشهداء . ثم سرعان مايفنى كل شىء ويعود الجميع إلى السرور والمرح واللهو واللعب . وهو لايغار من السعادة التى سوف يفوز بها الذين سيبقون بعد موت أولئك الشهداء ، فهو يعلم أنه يفنى حياته لكى يمهد السعادة للباقين ولكنه يرجو على الأقل أن تحتفظ فرنسا بذكريات أولئك الشهداء ، وهو يربأ بذلك التمثال الذى شادوه من حطام آلامهم وأحزانهم أن يدفن فى رمال الأجيال والقرون ، وهو يرى أنه يجب على فرنسا أن تستمر على معرفتهم وأن ترثى لهم وتترحم عليهم ! وتنصت « أود » إلى قوله فى صمت ثم تؤكد له أن الأموات من جنود الوطن يسمعونه ، فيناديهم بأسمائهم ، ويخبرها أنه قد تبين أصواتهم فقد أجابوه وقالوا له جميعاً : « كونا سعيدين » .

ثم تطلب إليه أن يدنو منها وهى تقول له فى لهجة شعرية رائعة أخاذة .

— دع شفتى حتى أستطيع أن أحدثك ... ضع فمك بقربهما تماما . لا . اعطنى إياه . آه كم كنت أود أن أتمكن من إعطائك قبلاتى وكلماتى فى آن واحد ! أغمض عينيك كما أغمضهما أنا . أطفىء هذا الضوء الشرير (يطفىء المصباح وعندئذ تظهر على زجاج النافذة بشائر الفجر ، الفجر الفظيع الرهيب الذى تحدد لرحيل الجندى العاشق . ولكنهما لا يزالان مغمضين عيونهما فلا يريانه) إننى إذاً أكون لك أنسى العالم . خذ منى كل ما فى من شباب . إننى أعطيك إياه . إنه لك . لك وحدك . لك دائما وإلى الأبد . أنت وحدك الذى سوف يعرف حرارة جسدى ، إننى أذوب فى حياتك . ثم تتذكر الفجر فتفتح عينيها وتقول وهى مضطربة : أنظر . ! لا تنظر . ! إنه هو . كلا . إنه ليس هو . قل إنه ليس هو . إنه ليس هو الفجر ! فيقف ويحييها فى جرأة وإقدام : إنه الفجر .

فتمسك به وهو على حافة الفراش وتقول : ليس هـذا هو الفجر ، لا شك أنه هو !

ويتأثر الجندى الشاب لذلك الحنان العجيب الذى تظهره « اود » فيذهب إلى النافذة ويسدل عليها الستائر . وهو يقول :

إنه ليس الفجر ما دمت تريدين ذلك

— وماذا تساوى إرادتى ؟

ما دمت هنا فهى التى تسود العالم

— إذن فلا تسافر

— حسن . سأبقى

ثم يطلب اليها أن تنام لتستريح فتبدى له خوفها من أن يغادر المنزل وهى نائمة . فيؤكد لها أنه سيبقى . وتشعر أنها جد سعيدة إذ تراه بجانبها يتحدث اليها وهى فى الفراش . فهذا أبدع من سماع الموسيقى . فالموسيقى تدلل الجسد ، أما الحديث فهو وحده الذى يدلل الروح . وتلتمس منه أن يقسم لها بأنه لن يتركها فيقسم وعندئذ تتمتم : إننى سعيدة

وتنقضى فترة ثم يسألها : أتنامين ؟

(تجيبه هامسة : « اجل » فيذهب الى النافذة ، يزيح الستار . ثم يرى « اود » نائمة فيخونه شجاعته ويطلع الغرفة ذهابا وإيابا فى تهيج واضطراب ولمس فيها بأصبعه (أكره من نومها وهو يتمتم) :

— « أتنامين ؟ »

فاذا وثق من أنها نائمة وضع رأسه على الوسادة وأخفاه ثم أخذ يبكى وقد بدا ضوء المصباح يقمر الغرفة وهو يحاول جهد طاقته ألا يوقظ اود ... ويبكى ويبكى ... مع أنه لم يكن يعرف البكاء من قبل !

فإذا كان الفصل الثالث ، فنحن فى غرفة أخرى من غرف المنزل اجتمع فيها الأب الشيخ بابنه الجندى وخطيبته أود . وأنت تفهم منذ بداءة الفصل أن الجندى قد عدل عن الوعد الذى قطعه على نفسه أمام خطيبته ، واعتزم الرحيل من جديد والعودة إلى ساحة القتال . وهو يذكر ذلك لوالده ويلفت نظره فى سخرية إلى أن هذا الرحيل سوف يتيح له — أى للأب الشيخ — الفرصة للاستمتاع بذلك النظام اليومى الذى اعتاده فى حياته مع « أود » . سوف يعود إلى تاقى قبلتها فى المساء قبل أن تذهب إلى فراشها ، وإلى سماع صرير المفتاح فى باب غرفتها ، وإلى التلذذ بالسكون الفاتر يسود جو المنزل . وأنت تحس بأن الشيخ يحوم حول معرفة ما فعله الشابان فى الليلة الماضية ، وهو يرغب فى معرفة ذلك ، فهو يذكر أنه لم يرضوا فى غرفتهما عند ما أغلق نافذته فى منتصف الساعة الرابعة ويتساءل عن سبب ذلك وهو يستشف من خلال

إجاباتهما ما يثيره ويستفزه ، فهو يهاجم ابنه إذ اجترأ على تلويث فتاة عذراء كانت تحت حمايته هو ! وأنت تحس من طريقة إلقاء ذلك الشيخ ولهجته أنه يغار من ابنه غيرة لا يكاد هو نفسه يشعر بها ، فهي غيرة تشتعل في عقله الباطن ، ويتجاهل أن تلك الفتاة إنما هي خطيبة ابنه وحليلته ، وهو لا يستطيع أن يضبط غيرته من الشباب الذي يتمثل في ابنه وخطيبته . ويشعر الابن الجندي بذلك ويجابه أباه به ، ويذكر أن للأبوة حقاً في أن تتعرض لمثل ما تعرض له أبوه . فلا يمكن أن يحكم على تصرفات جندي الامن عرض حياته للفناء في ساحة القتال ، ويثور الابن فيصارح أباه بأنه إنما ينتقده لأنه لا يريد أن يحرم من التمتع بذلك النظام الذي اعتاده في حياته مع « أود » أثناء غيبته في الحرب ، ثم يقول بمنتهى الصراحة : « إنه مما يضايقك أن أظل حياً ! ويدهش الأب الشيخ لذلك ، ولكن الابن الجندي يعلل هذا بما سبق من أن أباه يغار منه دون أن يشعر بتلك الغيرة ، وهو يحس الآن بأن غيرته قد جرحت بعد الذي علمه مما دار بين الخطيبين في الليلة الماضية » . ويثور الابن على شيوخ العالم ويقول : « إن الشبان قد اختفوا في هذه الحرب وعاد الشيوخ إلى احتلال مكانتهم كرجال وشبان من جديد . ويتهم والده بأنه يكرهه . وهنا تطلع « اود » والد خطيبها على ما ذكره لها خطيبها من أن الحرب ستطول وأنه أخفى عليهما ذلك . ويدهش الأب لهذا ، وتخشى « اود » أن يموت خطيبها في تلك الحرب ! وعندئذ يقول الجندي لها :

إذا مت فانني أمانع في بقائك هنا — ثم يبدي رغبته في أن يصطحبها معه إلى باريس ، فتمانع في ذلك ، ويظن الأب الشيخ أنها تمانع من أجله فيشكرها . ويلح الجندي في ذلك ويطلب اليها أن تختار بينه وبين أبيه ؛ ويدور بينها وبين الشيخ هذا الحوار العجيب !

هي — سيرحل ؟

الشيخ — هل طرده أحد !

هي — سيذهب ؟

الشيخ — ليذهب

هي — سيعود إلى وطيس المعركة

الشيخ — فليؤد واجبه

هي — إنه يواجه الموت

الشيخ — يتوهمون ذلك دائما !

وفي تلك الأثناء تكون « أود » بجانب الشيخ فيظهر عليها الاشمئزاز منه وتتراجع وهي تنظر اليه في احتقار وازدراء وتقول في صوت قوي : إنك ترعبني ! فيصيح الشيخ : « اود ! »

ولكنها تلتفت إلى الجندي وتقول : « خذني ! » وتصارح الشيخ بأنها تشمئز منه وأنها لا تريد البقاء . وتؤكد لخطيبها أنها لم تفكر في أحد غيره . وأنها له وحده . تفخر وتزهى بأنها زوجته أو بأنه جعلها زوجته ! ويسألها الشيخ عما إذا كانت لم تشعر بحبه لها أو بحبها له . ولكنه ينتبه إلى وجوب التزام الوقار والحكمة ! وتلتفت إلى خطيبها فتعاهده بأنه إذا مات مستشهداً في ساحة القتال فسوف لا تعرف في الحياة بعده إلا ذكراه ... وينصح لها الشيخ ألا ترتبط بمثل ذلك التعهد فتسخر منه وتكرر قسمها بأنها سوف تقنع بذكرى خطيبها إلى أن تلحق به ... فإذا عاد الشيخ إلى نصحها غالت في قسمها وعاهدت خطيبها على أنه إذا مات فستلحق به . ثم يشتد بها الضجر من الجو الذي يحيطها فتطلب أن يأخذها معه فيتوسل الشيخ إلى ابنه قائلا: اتركها لي. وعندئذ تلتفت اليه وتقول : أتوجه اليه الكلام!

الشيخ للجندي — قل لها أن تبقى . وتسخر منه اود فيعترف بأنه وهب قلبه لها للمرة الأولى في حياته . فتنبهه إلى أنه يجب أن يهبه لابنه وحده . ثم تسأله: هل تعرف شيئا عن الحرب؟

الشيخ — أعرف اليوم للمرة الأولى . ثم يعترف بأنه لا يمكن لامرىء معرفة الحرب إلا بعد أن تدميه وتمزق قلبه . وها هو يشعر بقلبه يتمزق ! وعندئذ تشير إلى الجندي قائلة : إذن أنظر اليه الآن !

الشيخ (بنغم) — يا صغيري المسكين !

وتطلب إليه أن يحييه ويستغفره فيتقدم الشيخ إلى ابنه ويسأله الصفح وهو يقول : إن البطولة أيها الشبان من حقكم الطبيعي . إنني أتوسل إليك أن تعفو عما ارتكبته من حطة وضعة. لا أطلب شيئا آخر ... سافرا ... انساني . (لابنه) ولكن لا تسافر قبل أن تقول لي أنك عفوت عني .فها أنا ذا والدك أجثو تحت قدميك . عفوك . فيتأثر الابن الجندي ويعفو عن أبيه ثم يقول : إنه لشيء جميل أن يكون رجل هرم مثلك بهذا الحنان . لا تأسف على ما شعرت به من الألم . فاذا تألم الشيخ أصبح شابا. لا وسيلة غير الألم لكي تقترب منا نحن الشبان .

وهذا هو في الواقع محور القصة كلها ، فقد وفق المؤلف

توفيقاً تاماً إلى الغرض الذى يرمى إليه . إذ كان واجب الابن الجندى أن يرفع خطيبته ووالده إلى مستوى البطولة ، وأن يسمو بهما إلى المثل العليا النبيلة التى وصل إليها حماة الوطن من جنود الجيش الفرنسى أثناء الحرب ... وها هما قد ارتفعا وسمت نفساهما إلى السماء ... وهـا هو الابن يعرض على « أود » أن تبقى مع والده بعد أن صفح عنه ، فيأبى الوالد هذه المرة ويرفض . ولـكن الابن يلح فيقبل الشيخ فى خجل وحياء أن يحمى زوجة ابنه . ويلتفت الجندى إلى خطيبته فيطلب إليها ألا تنفذ ما قالته له من أنها ستلحق به إذا مات فى ساحة القتال فهو لا يريد ذلك . بل هو يتوسل إليها أن تبحث لها بعده عن شاب يكون قد خاض غمار الحرب وأدى واجبه القومى . ويجب عليها ألا تترفع عن حبه إذا بادلها هو الحب . فإذا وصلت شخصيات القصة الثلاث إلى هذا الحد من السمو والتطهر اقتربت اود من خطيبها وهى تقول : أحبك ... ويقول الوالد لابنه فى صوت قوى : إبق حيا .

ويظهر الابن الرضى والاطمئنان ويتقدم إلى الباب وهو يقول : حسن .

وتنتهى القصة هكذا .

الشيخ — عد إلينا ناجيا

هى — أحبك

الشيخ — إننى فى حاجة إلى يدك لـكى تغمض عينى .

هى — أحبك

ويكون الجندى إذ ذاك قد بلغ الباب فيلتفت إليهما ويقول فى لهجة مفعمة بالحب : كونا سعيدين !

ثم يختفى ويسمع صوت الباب الخارجى وهو يغلق ثم صوت المربة وهى تبتعد . وتظهر علامات الأسى على « اود » فتسقط على أحد المقاعد ويشترك الشيخ والشابة فى البكاء والأنين !

(البصرة) سهيل

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات الأسكندرية طبعة أبريل سنة ١٩٤٧

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات الأسكندرية الذى سيصدر فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ .

والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الإيضاح اتصلوا : — بقسم النشر والإعلانات بالإدارة العامة — بمحطة مصر

مطبعة الرسالة